صدى

بقلم
صفاء جاد

المسافة ليست بعيدة التي داري ودار المجلة يحلولي أحيانا أن اقطعها سيرا على الأقدام وخاصة في الخريف أو الشتاء عندما يكون الجو رائقا ..

الجو نفسه .. شمس .. طيبي لا ادعاء فيه .. عادي هو يتسق أكثر مما يحب ـ كجو الرمالك مثلا ـ أو هادرا ذا صخب كسوق الاثنين ـ عندما ابتلعت يمه أو يسرة أشاهد بعض ـ اكشاك الجرائد ـ لعله من صخب عملي أو بعض الناس الذين يتطرون على محطات الاوتوبيس في انتظار الفرج .. هناك أيضا بعض المحلات تبيع عصير الفواكه وانتاج الالبان .. والبدالين ..

وفي طريقي الى دار المجلة احسست بشيء غريب .. لم أحس به من قبل .. ربما لانني قرأت طالعي في صحيفة الصباح .. فقد كتب فيها .. مفاجأة غير متوقعة .. كلام فارغ .. لانني سأشاهد السماء اولا ثم الرمال والرميلات ورئيس التحرير .. فاين المفاجأة ؟

وعندما احتوتني حجرتي في الدور الثالث من دار المجلة انهمكت في بعض المكالمات المرسلة من بعض النفوس القلقة بالحائرة .. هيه .. لولا حيرتهم وتحيطهم لما (اكلنا عيش)

أعدت ظهري الى مقعدي الجلد المريح وقرعت الجرس .. وفي دقائق دخل الساعي .. ابتسم دون أن يسأل وبعد دقائق أخرى جاء ومعه صينية القهوة .. سكر زيادة وطبقة كثيفة من البن تعلو سطح الفنجال ..

ثم تركني مع الناس .. أعني مع خطاياهم .. الخطاب الاول .. آنسة في ريعان الشباب لا تستطيع المواظبة على المذاكرة من ... ابن الجيران .. أبدا ليس لانه يصارلها ... بل لانه لا يصارلها .. فهو (ثقيل جدا) صرت عليه .. اكثر من ستة اشهر وهو (ولا كانه هنا) ماذا تفعل ليلتفت اليها ؟..

يا محررتي .. المسألة ليست مسألة ثقل والثقل صنعة بل لان قلبه مشغول

بعيدك أو بالدروس التي حاضرتها ٠ عندك حليب ٠٠ ربما يصادفك آخر يتجاوب معك ٠٠ أو ٠٠ تنتقل إلى شقة أخرى ٠٠ ان ٠٠ لم تستطيعي اغلاق النافذة ؟

وهذا شاب أصيب في أثناء تأديته عمله وأصبح ذا عاهة ٠٠ أقفلت أمامه كل الأبواب ٠٠ خطاب جدير بالفحص ٠ سأوليه عنايتي ٠٠

وهذه تشكو من حماتها التي تتفنن في اثارة حنقها وليس عندها الدراية الكافية لسادلها الغيظ والكيد فماذا تصنع ؟ الرد بسيط جدا سيكون في يوم ما ٠٠٠ حماة !

و ٠٠٠ وما هذا ؟ قرأت الخطاب أول مرة كالمذهولة

ثاني مرة ٠٠ كل أشجاني ٠٠ تتحرك ٠ تتحدر ٠٠

ثالث مرة ٠٠ تهبط على وهدات حواسي

هيه ٠٠٠ الفاجأة ٠٠٠ صدق الطالع أيها الخطاب العزيز ٠٠ سأتركك لست أدري بالضبط ٠٠ الى دقائق أو ساعات لكني الآن بالذات لا أستطيع القرار من هذه الرؤى التي تلاحقني فدعني أتأملها وحدي ٠٠ كيف أسي يوم أن عرفت حبيبي حلمي ٠٠٠ في رحاب الجامعة المسيح ٠٠ الثقيلا ٠٠ تعارفنا ٠٠ تحابينا ٠٠ كل العواطف المذخرة المكبوتة منحتها اياه ٠٠٠ في فترة خطوبتنا التي اختار لها أن تكون قصيرة ٠٠ عمره حتى هو الآخر لم يعد يتحمل لوعة الانتظار ٠٠ ثم تزوجنا ٠٠ أيقظني على الحياة ٠٠ رعاني ودللني في رقة وعذوبة ٠٠ وسخاء ٠٠

عندما كان يخرج في الصباح الى عمله ٠٠ يتركني ٠٠ وحدي مشتاقة ٠٠ ليس لصاقه فقط بل لكلمة حلوة أسرني بها ٠٠٠

في أشهر قليلة كملتني بكل ما يربط بيننا ٠٠ أصبحت لا أطيق فراقه ولو الى لحظات لكن ٠٠ حدث شيء أطفأ الكثير من لواعج حبي فقد حملت

ويبدو أن لضعف جسدي وارهاف احساسي عانيت الكثير ٠٠ فقد شحب لوني وتسارعت انفاسي وأصابني كلل شديد ٠٠ نصحني الطبيب بالراحة التامة ـ ولو في الأشهر القليلة الاولى ٠ حتى أتمكن من استرداد صحتي ٠٠

وأشارت على أمي أن أسافر اليها في الريف حيث تقيم مع زوجها الثاني الذي اقترنت به عقب وفاة أبي ـ قائلة لي طالما أنت في بيتك لن تعرفي للراحة طعما ٠ لم يكن زوج أمي كريما بالقدر الملاحظ في أزواج الامهات ٠ ولا حنونا كبير القلب كالآباء ٠٠ لكنه كملني وكأنه مؤدي واجبا للمجتمع لا سبيل للفكاك منه ٠٠ ولم يشجعني على السفر الا مكالمة تليفونية منه يلح علي فيها بالذهاب كي أصفي عليهما الكثير من مرحي وانطلاقي ٠٠٠

ودعت زوجي وحبيبي والدموع تسقي فيسحبها عن وجنتي بشفاهه الحارة ثم يهمس في أذني كأنه يعني قائلا ٠٠ حافظي على صحتك الغالية واحرصي على حبيبنا القادم ٠٠ لولا كلماته هذه ٠٠ لما اهتممت بصحتي ٠٠ فطالما استرددتها صممت سرعة عودتي اليه ولذا فقد نفذت كل أوامر الطبيب ٠٠ تحول غذائي الى شراب اللبن الريفي

صباحي وتناول الفواكه التي تساعد على عودة الصحة الى .. أحاديثه التليفونية اليومية ..

الحديث الصباحي كان يرودني بعداء للنهار كله ..

وفجأة .. تباعدت الاحاديث .. ثم انقطعت .. تشوش ذهني واعتورني القلق فهمست لأمي بمخاوفي .. أن روحي في البيت بمفرده .. لا يرعاه أحد .. لابد وان هناك شيئ وخطرت لي فكره .. ان التليفون ربما اصابه عطل لكنني تبينت - فيما بعد - انه سليم لصحتني أمي وكذلك روحها بالتربت لبضعة ايام ..

جاهدت نفسي وصبرت .. لكنني احسست بالاختناق فعاقلتهما وسافرت بعد أن سطرت لهما كلمتين للاطمئنان .

تذكرت أن طبيبي نهاني بألا أجهد نفسي بالسير الطويل .. وكنت محملة بفواكه الريف وخيراته .. وفي طريقي الى حيث .. انتابتني الهواجس .. كنت أطردها فكانت تلاحقني وتتشبث بي .. كل الافكار المزعجة المظلمة .. طافت بمخيلتي ثم تصورته أخيرا صريعا مرضى عليه وأنت نفسي .. لابد انهم دللوني أكثر مما يجب .. لو كنت بجانبه لصنته من كل ما هو ضار يكفي أن أزوده بحناني وقبلاتي وعندما كنت اقترب من البيت عاقتني لافتة .. تسمح للسائرين من عبور الطريق لبعض الاصلاحات .. اضطررت أن ألف وأدور كثيرا وطويلا واخيرا حاذيت البيت .. بعد أن اصابني التعب .. والدوار احسست به في رأسي كأنني أتوه في

إنهواء — ثم بقيت عقبة واحدة أخيرة
— لم يكن ليبتا مصعد .. وتحاملت
على نفسي .. واحدت أصـــعد الدرج
واحدة — واحدة ... انفاسي تلاحق
— صدري يعلو ويهبط .. وأخيرا ..
أخيرا شاهدت باب الشقة امامي —
وأخرجت مفتـــاحي وكانني افتح به
ابواب — الجنة .

البيت .. كئيب — ســـاكن ..
موحش — مع أني تحيرت فترة رجوع
حبيبي — هيه — هذا حسن ومضاء
انه بمفاجية ما دام ليس بالبيت — ورحت
بعيني امام باب مشـا مفتحته وكل ماقي
مقبل عليه — ماذا ... ماذا ارى ؟؟
حلمي مع امرأة — للحجرة باب آخر
على الســـلم — فقرر المرأة في ثوان
واحدت وقرر هو ماه .. واخيرا واتته
الشجاعة ... اراد ان يتكلم .. لكنني
لم اسمع — لم أع — لم أر — يبدو
انني قلت أشياء ... اشياء غريبة
أشياء لا أذكرها — ثم اصابني الشلل
في كل حواسي — حمل الي انيس بحوار
امي وان هذا حلم جلست له عندها —

كل ما أذكـــره هو اني خرجت من
البيت لكن كيف سرت ؟ لا أدري ..

ثم سمعت صوته وهو يردد اسمي
.. كل درجة من درجات السلم التي
صعدتها ذكرتني باني انحدر واحدة ..
واحدة

أفقت بعد ساعات فوجدتني مع امي
— على سريري — أعاني من حالة احباض
عسير وسرعان ما مرت الايام .. وهي
خلالها اصر روح امي على طلاقي من حلمي
.. وتم كل شيء كما يشتهي .

وهانذا الآن — امرأة في الخامس
والعشرين من عمرها أعمل بالصحـافة
— كي انسى ولا أكون عالة على روح
امي —

اما هذا الخطاب الذي استلمني الى
كل تلك الرؤى — فقد وجدت فيـــه
نفس الشـــكوى — نفس القصة ..
نفس الحديقة — نفس الحيرة والعذاب

تاه فكري .. ماذا يجب ان اقـول
لتلك المرأة ؟

اية نصيحة يجب ان اسديها اليها

انها لم تطلق بعد من زوجها .. فهل
احكم عليها بان تكون مثلي ؟

اني برغم عذابي ووحدتي وتشردي
— ما زلت احب زوجي ..

وهي ... هي ايضا تحب زوجهـا
— فهل اقضي عليها بالحرمان مثلي —
هل اقتلها ؟

وحانت عواطفي وانهمرت من عيني
الدموع — فتحسست القلم وامسكته
بيـــد مرتعشة وكتبت هـــذه العبارة
البسيطة الموجزة ابقي على روحك .